

نظرية جديدة في :

تاريخ بناء جامعة القرويين

بين الحين والآخر تكشف لنا الأيام عن نظريات في تاريخ المغرب كانت إلى أمس القريب تعتبر في عداد الأسرار الدفينة ، الأمر الذي يؤكد أن تاريخنا بحق لم يكتب كما يجب بل قد ناله في بعض المراحل كثير من التزوير والتحريف. وهكذا فمنذ زمن غير بعيد طالعنا الأستاذ ليفي بروفنصال بنظريته حول تأسيس مدينة فاس استناداً على وثائق فيها النقول العربية وفيها بعض القطع النقدية ، هذه النظرية التي تملخص في أن باني عدوة الأندلس من فاس هو إدريس الأول بينما كانت عدوة القرويين من عمل إدريس الثاني ... وطالعنا بعد ذلك عمليات التنقيب التي قام أساتذة آخرون أمثال ماسلوف وطيلاس في جهات متعددة من المغرب ومنها جامع القرويين على حقائق أخرى كانت إلى هذا الوقت خفية على كثير ممن يعنون بالتاريخ ، على أن بين مؤرخينا المغاربة أنفسهم - وفيهم طائفة تمتاز بالمصابة والمثابرة في البحث - طالعونا - وما يزالون - على دفاثن أخرى جديرة بالتنويه والإشادة وأذكر من هؤلاء على الخصوص الأساتذة محمد الفاسي والمختار السوسي وعبد الله كنون ومحمد داود وعبد العزيز بن عبد الله ومحمد التطواني ومحمد المنوني ومحمد بن تاويت وأمثالهم ممن توفروا على هواية تاريخية نافذة فراحوا يؤلفون وينشرون. بيد أن كل هذه «الفتوحات» تحتاج دوماً إلى تضافر الجهود حتى نحتمل مكانها في التاريخ وبالتالي حتى تصبح في متناول التلميذ والطالب والأستاذ ...

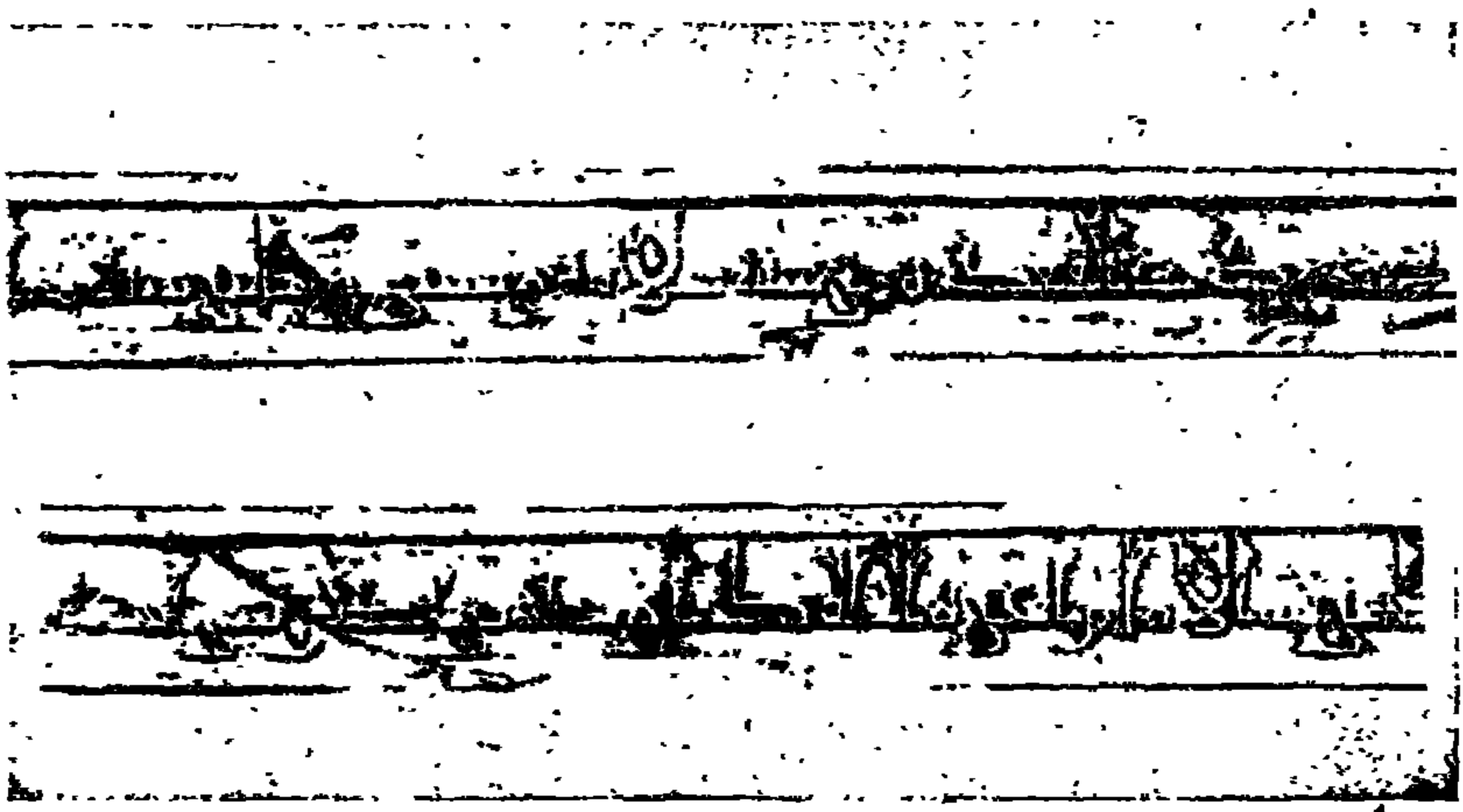
ولا أهدف بهذه المقدمة إلى أن أثير الانتباه إلى هذا «الفتح الجديد» بقدر ما أهدف إلى تصحيح صفحات من تاريخنا المبكر... إن كل أولئك الذين كتب لهم

أن يزاووا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيدا أن ابن أبي زرع في القرطاس والجزنائ في زهرة الآس وابن خلدون في تاريخه وسائر من تبع هؤلاء ، يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس بنى سنة ٢٤٥ بمطالعة العاهل الإدريسي يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية التي تطوعت ببنائه ، ظلت صائمة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكراً لله . . . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن كتب التاريخ تطبق - ولا أقول تكاد تطبق ! - على أنه لما توفى إدريس الثاني قام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه وأن هذا الأخير لما ولى ، قسم بلاد المغرب بين كبار إخوته بإشارة من جدته كنزة فاخص كل منهم بجهة وكان من بينهم داود بن إدريس الذي استأثر بإقليم تازة ، ورددت الكتب بعد ذلك صدى « الفتنة » بين بني إدريس على أثر هذا الإقطاع لكنها لم ترجع بحال لذكر داود لا في عداد الثائرين على السلطة المركزية ، ولا في عداد الذين قاموا بتهدئة الثورة . . .

تلك هي الحقائق التي حفظناها ، لكننا اليوم أمام وثيقة ساعدت إلى حد كبير على معرفة مدى صحة تلك « الحقائق » .

نحن الآن أمام لوحة نقشت على عهد الأدارسة أنفسهم عثر عليها في واجهة القبة الرابعة عند البلاط العمودى من جهة العنزة ، أى في منتهى « البلاطات الأربعة » للقرويين الأولى . . . لقد اكتشفت مدفونة في الجبس تحت كثافة سبعة سنتيمترات تقريبا ، مكتوبة بالخط الكوفي العتيق وهى ، ولو أن طائفة من حروفها منهوك ومتعب ، غير أنها مقروءة في الجملة ولم يفت منها إلا قدر يسير من أولها وآخرها . هى لوحة من طول أربعة مترات وأربعة وسبعين سنتيمترا ولكنها ليست عريضة إذ أن سعتها لا تصل إلى عشرة سنتيمترات ، لقد حملت إلينا - فيما حملت - تاريخ بناء القرويين أعنى شهر ذى القعدة من سنة ثلاث وستين ومائتين ثم هى أى اللوحة المذكورة تحمل سرا ثانيا يفوق الأول ذلك أنها تنصف عاهلا إدريسيا اضطرت الكتب لذكره في

جملة عابرة على أنه عامل لإقليم تازة مع أنه كان السلطان الشرعى على عاصمة الملك، فاس،
فى هذه الفترة الغامضة التى عاشها المغرب إثر توزيع الأمر بين بنى إدريس . هذا
الجاهل هو الإمام داود بن إدريس الذى كان بالأمس صاحب تازة. لقد نقش على هذه
اللوحة اسمه على النحو التالى : « مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله
ونصره نصرا عزيزا ... » .



جزء من النص الذى يحمل التاريخ الصحيح لبناء جامع القرويين
ترى كيف يكون موقف المؤرخين أمام هذه النقوش التى احتفظت بالحياة منذ
أحد عشر قرنا ؟ نحن الآن بين كتب حبرت على عهد بنى مرين فى القرن السابع
الهجرى وبين هذه الوثيقة التى نقشت على عهد الأدارسة فى القرن الثالث الهجرى ،
فأيهما كانت جديرة فى نظر المؤرخ الأمين بالنظر والاعتبار ؟ لاشك عندى فى أن
أحدا من المنصفين لا يتردد فى ترجيح هذه الوثيقة ومنحها الأسبقية على غيرها
أولا لأنها كتبت فى نفس العصر الذى نتحدث عنه ، وثانيا لأنها تاريخ خام لم يلحقه
تأثير ما ، من قبل جهة ما ... وليس بالراجح فى نظرى أن نحاول الجمع بين رواية
المصنفات ومدلول هذه اللوحة فتدعى أن أعمال البناء ابتدأت سنة ٢٤٥ واستمرت إلى
سنة ٢٦٣ ، أى أن يحنى الأول بدأها وأتمها عمه داود وتكون فاطمة بهذا ظلت
صائفة ثمان عشرة سنة ... ذلك لأن المصدر التاريخى أولا يحنى لنا ثم ثانيا لأن مسجد

لاتصل مساحته إلى ألف متر مربع لا يمكن أن يتطلب هذه السنين الطوال بالرغم من حالة الجفاف التي تعرضت لها البلاد في هذه الأثناء ، وبالرغم أيضا من الطريقة التي سلكتها فاطمة في بناء المسجد ، والتزامها - تحريا - أن تستخرج كل مواد البناء من نفس البقعة ... بقى إذن أن نتمسك بـصك منقوش على عهد الأدارسة يحمل الإسم والتاريخ ، وأن نأق على كاهل القرطاس والآس والعبر ، تبعة ما نقلوه عن غيرهم وفي الناس فريق قديتمسك باسم فاطمة القيروانية كمؤسسة ولو أن اللوحة استعاضت عنها بالإمام داود وذلك استثناسا من هذا الفريق بكون الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقديرا لهم وتكريما لمقامهم. بيد أن عدم توفرنا على ترجمة مدققة لفاطمة من جهة ، وعدم نص المصادر على هذا التأويل « الجديد » من ناحية ثانية لا يساعد على الاطمئنان ..

بقى بعد هذا أمر آخر لا نرى مناصا من إثارته هنا ... وذلك مملكة داود ؟ أين مبدؤها وأين نهايتها ؟ ومتى امتد سلطان داود من تازة على فاس ؟ ومتى انتهى ؟ إن التاريخ - كما سبق أن قلت - يخل على داود بن إدريس بأكثر من سطر لم يتجاوز عشرة سنتيمترات ! فكيف يمكن أن نتصور الأمور على ضوء الأحداث ؟ بعد وفاة إدريس وزع ولي عهده محمد بلاد المغرب على « الثمانية الكبار » : عيسى والقاسم وعمر وداود الخ. ويحفظ التاريخ ثورة عيسى وتمرد القاسم كما يحفظ لعمر امتثاله لأمر أخيه محمد لهدئة الثورات ، والتاريخ بعد هذا سكت عن بقية الأخوة الذين ظلوا محتفظين بولائهم محترمين لمهودهم ... وبعد وفاة محمد هذا كان ولي عهده هو ولده عليا الذي لم يبلغ من العمر عشر سنوات والذي توفي مبكرا سنة ٢٣٤ ، بعد أن عهد لأخيه يحيى الذي عرف بهويته المهارية والذي تنسب لأيامه جامعة القرويين ، وتوفي يحيى الأول هذا في وقت مجهول ليأتى بعده يحيى الثانى الذي عرف بخلق المائع والذي يجهل طبعا تاريخ توليته وتاريخ انسحابه من الحكم ، وبعد هذا تأتي « دولة » علي بن عمر ابن إدريس الذي جهل أيضا تاريخ توليته وتاريخ انتهائها !

أريد أن أتصور أن هذين الملكين : يحيى الثانى وعائياً بن عمر - وأمر توليتهما بدءاً وختاماً معلوم ! - لم يكونا شيئاً يذكر وإنما كان عمهما الذى يكبرهما سنّاً ويفوقهما حصافة فى رأى والذى كان فى عداد المتّزّنين الذين احتفظوا بمراكمهم، أتول هذا العم كان هو المسيطر الحقيقى فى هذه « الفترة الغامضة » إلى أن تربع على الكرسى الملكى يحيى الثالث الذى اغتيل سنة ٢٩٢ ، كان هو المسيطر وإلا فبماذا نفسر أمره ببناء مسجد كمسجد القرويين سنة ٢٦٣ ، وبأى ميزان وزن عبارة الوثيقة الهامة : « أبقاه الله ونصره نصراً عزيزاً » .

الخلاصة أن القرويين بنيت سنة ٢٦٣ وليست سنة ٢٤٥ ، وأن بناءها تم على عهد الإمام داود بن إدريس وليس على عهد يحيى بن محمد بن إدريس ... وشيء ثالث من خلال هذا فإن داود كان فى عداد الملوك الأدارسة البرزين الذين شيّدوا وبنوا وليس فقط عاملاً عادياً من عمال أخيه على الناحية الشرقية لمدينة فاس .

عبد الرهّادى التازى